الجزء التاسع (المجلد الرابع)

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب

المنار

١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب

(قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « مناراً » كمنار الطريق)

(مصر في يوم الاربعاء ١٦ ربيع الاول سنة ١٣١٩ — ٣ يوليو (تموز) سنة ١٩٠١)

التقليد

« خطاب ألقاه في المدرسة الكلية الاميركانية في بيروت الفاضل الاديب »

« عبد الرحمن افندي شهبندر »

من تأمل هذا الوجود بعين الحكمة يعجب وتأخذه الحيرة لما يظهر له ما يطرأ على الامم من التغيرات والتقلبات : فبينما هو ينظر في باب من ابواب التاريخ الى ماوصلت اليه الامة المصرية مثلاً ايام الفراعنة من العظمة والمجد المؤثل يرى في باب آخر ان هذه العظمة قد انتقلت وهذا المجد قد زال واصبحت تلك الامة في قبضة امة اخرى تتصرف فيها كيفما شاءت وشاء الهوى . وما قيل عن المصريين يقال عن الكلدانيين والاشوريين والبابليين واليونان والرومان . امم زالت وآثارها تشهد لها بان ذكرها لن يزول . ولعمري لو نظر احدنا الى ممفس ايام مجدها أو الى نينوه ايام عزها أو الى اثينا ايام حكمتها أو الى رومية ايام سطوتها لكذب التاريخ في مايدعيه من زوال تلك المدنيــة ولظن انها لا تزال مخيمة بتلك الربوع لا تؤثر فيها

عوامل الزمان ولا تزعزعها طوارق الحدثان . ولو قال اليوم احدنا ان مدنية الانكليز مثلاً ستزول يوماً ما حتى لو ذهب احدنا الى لندن لرآها أثراً بعد عين ولرأى وستمنسترها كهيكل عظمي في مدينة اموات لكذبناه ونسبناه للجنون . لكن من تدبر نواميس الكون وقاس الحال بالماضي وحكم الماضي بالحال عرف ان ذلك من الممكنات وما أرانا اياه التاريخ اثباتاً لهذه الحقيقة يكفي لمن القى السمع وهو شهيد

لكن ماهي تلك النواميس وماالذي يحفظ المدنية وماالذي يذهبها ؟ هذه اسئلة صعبة جداً لا يمكننا ان نجيب عنها كلها في هذه المدة القصيرة بل يكفي ان نقول ان حكمة التاريخ وعلم العمران افادانا ان للكون نظاماً بديعاً وسنناً محكمة استخرج الغربيون اكثرها واستعملوها في حفظ حياتهم ونحن عن ذلك لاهون مع اننا باستخراجها واستعمالها اولى لما يتلى كل يوم فوق رؤوسنا « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا » « سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً »

فمن هذه السنن ان الامة متى فسدت آدابها واخلاقها فسد عمرانها لان الآداب والاخلاق هي الرابطة في الاجتماع البشري ومتى انحلت هذه الرابطة انحلت عراه : ولنا في المصريين والرومان اعظم شاهد فقد اجمع علماء التاريخ على ان من اعظم الاسباب في زوال دولتيهم فساد « العائلة » وسوء التربية وانتشار الفجور والعياذ بالله تعالى

ومنها وهو قريب من الاول ان ظلم الدولة مؤذن بخرابها لما له من تثبيط الهمم عن الاعمال ومتى توقف عمل الامة وحركتها تأخر عمرانها

قال العلامة ابن خلدون : « ان العدوان على الناس في اموالهم ذاهب

بآمالهم فى تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من ان غايتها ومصيرها انتهابها من ايديهم واذا ذهبت آمالهم فى اكتسابها وتحصيلها انقبضت ايديهم عن السعى فى ذلك والعمران ووفوره ونفاق اسواقه انما هو بالاعمال ؟

ومنها ايضاً ان الامة التي تنزوى عن الامم الاخرى لاعتقادها انها اعظم منها علماً وأدباً وفضيلة ونسباً تصبح وراء تلك الامم اذ تقدم العمران يتوقف على المباراة والمسابقة ولا نجاح بدونهما فالصينيون لما اعتقدوا انهم افضل الامم نسباً لاتصالهم بالآلهة واتصال غيرهم بالشياطين وان بلادهم اخصب البلاد واجلها وان عوائدهم افضل العوائد وان لا علم الا عندهم وان الحكمة لم تخط سدهم وشطوطهم وان . . . وان . . . قطعوا علائقهم مع غيرهم احتقاراً لهم فكانت النتيجة ان بقى عمرانهم تقريباً على ما كان عليه منذ الفي سنة ان لم نقل قد تأخر . فأخنى عليهم الدهر بأن ارسل عليهم من اليابان واوربا ريحاً صرصراً قوضت اركان مجدهم واقتلعت جذور عزهم وما سيصيبهم اعظم وكل آت قريب

هـذا قليل من كثير اوردناه برهاناً لقولنا ان للكون نظاماً بديعاً وسنناً محكمة وأهم منه بالنسبة للمشرق موضوعنا (التقليد) وقبل الخوض فيه نقول ان بعض العلماء اطلق هذه الكلمة على بعض الاعمال الخارجة عن الارادة يعملها المرء بعد ان يحركه بمثلها محرك آخر كما اذا نظرنا الى احد يتثاءب او يتلجلج فى كلامه فربما نقلده بلا شعور منا الا ان هذا النوع غير داخل فى بحثنا فاننا انما نبحث فى التقليد الارادى وتأثيره فى العمران وهو غريزي فى الانسان وعليه بنى الاجتماع البشرى فمن الحقائق التى لا مشاحة فى

حقيقتها ان الطفل مطبوع على تقليد غيره فحركاته تكون فى اول امره غير مضبوطة ولا متناسبة ولكن كلما تقدم فى السن نراه يجتهد ان يأتى بحركات كحركات مرضعته ووالديه فيظهر اول الضبط والتناسب فى عمله . والامم المتوحشة والتى حظها من المدنية قليل تشبه الطفل بذلك قال ماسون « بينا نرى الكاريين لا يأتون بجديد نراهم ميالين الى التقليد اكثر من الصينيين » وذكر (موات) ان الاندمانيزيين اذا سئلوا سؤالاً اعادوا لفظه كالببغاء من غير جواب . والاعجب ان الفارابيين مع احكامهم التقليد اذا ترك لهم عمل ولوكان بسيطاً جداً خبطوا فيه خبط عشواء . والجامدون فى هذه البلاد يشبهون هؤلاء المتوحشين بميلهم الى التقليد الاعمى فانهم اذا رأوا احداً يجتهد بجديد من الاعمال النافعة او استخراج معنى من كتب الدين هزأوا به قائلين : من اين لنا ان نأتى باعمال كهذه ومن منا قادر على فهم تلك الكتب دع ذلك للمتقدمين فزمان الاجتهاد قد زال وما علينا الا التقليد ؛

هذا يدلنا على ان التقليد من طبيعة الانسان ويدلنا أيضاً على ان ما يشغل العقول القاصرة من الصور العقلية للحركات الخارجة أو لغيرها يسوق اصحاب هذه العقول صاغرين للاتيان بمثلها . وربما يصير ذلك بعد قليل شبيهاً بالحركات الطبيعية البدنية الخارجة عن الارادة كحركات المعدة فى الهضم والرئتين فى التنفس والقلب فى الدورة الدموية . والسبب فى ذلك ان قليل التصور ساقط النتيجة لايستطيع الاجتهاد باكثر المسائل فيستنتج انه غير قادر على الاجتهاد مطلقاً والجامد يتجنبه لما فيه من الاشتغال العقلى فهو عدو كل حركة ولو قيل « الحركة بركة »

التقليد من حيث هو انوع متعددة والذى يهمنا منها هنا نوعان التقليد فى العوائد والتقليد فى العلم وهما بشبهان السلطة الشرعية . فكما ان هذه ضرورية للعمران كذلك ذانك اذهما قانونه المعنوىّ وكما ان هذه السلطة الشرعية كثيراً ما يساء استعمالها فبدلاً من ان تكون مدبرة عادلة تكون مستبدة ظالمة كذلك ذانك والمقصود من سوء استعمالهما ان يصبحا عبئاً ثقيلاً على عاتق الامة وحاجزاً منيعاً دون بلوغها ما اصبح لها لازماً ضرورياً . وعلى هذا الاخير بنيت موضوعى واليه وجهت خاطرى لما له من التأثير السيء فى البلاد . والتقليد الاعمى فى العوائد يظهر عندنا كثيراً ايام الاعراس ايام يعرض جهاز العروس فى الاسواق محمولاً فى العربات أو موضوعاً على رؤوس الرجال — ايام يفتح العروس ابوابه ويعد الموائد ويحشد الجموع التى يكاد ضجيجها يصل الى السماء — ايام يصرف الالوف على الازياء المضرة بالصحة يفعل ذلك كله لئلا يقال انه لم يقم بالفروض ولو كان كما يقول المثل « يبيع الماعون قياماً بالقانون » (استحسان)

اما مجالسنا فهى مظهر التكلف واذا نظرنا الى اكثرها ماذا نرى ؟ تالله لا نرى الا اناساً جالسين وعلائم السآمة تلوح على وجوههم اذا تكلم احدهم فانما يتكلم ليقال عنه انه مسرور وغالباً يكونون صامتين كالأصنام لا لبكم بل لان افكارهم مصروفة الى الخزعبلات — هذا يفكر فى قلة ادب الحاضرين لأنه لما خرج من المجلس لغرض له وعاد لم يقوموا له وذاك يبحث فى سوء معاملتهم له لأنهم لم يضعوه فى صدر المجلس — هذا يقول فى نفسه ان صاحب البيت لم يستقبلنى استقبالاً لائقاً بى فياليتنى لم ادخل بيته — وذاك ينتقده انه لم يسرع بتقديم الاركيلة (الشيشة) والسيكارات

هذا يشتم الخادم فى نفسه لانه اعطى فلاناً القهوة قبله وذاك يتألم من سيده لانه لم يقل له « شرفتم » بعد ان شربها — هذا وهذا . . . كل منهم يفكر فى هذه الترهات ويخوض فى هذه الجهالات حتى اننا كثيراً ما كنا نسمع من يخرج من مجالس كهذه يقسم الايمان المغلظة انه لن يحضر اجتماعاً بعدها ابداً (تصفيق)

اى مقابلة بين مجلس كهذا ومجلس لايدخله الا من صفت قلوبهم وراق ودهم يعرفون معنى الصحبة ويقدرون فائدة الاجتماع حق قدرها — هذا يأتي بنكتة فيقابله الحاضرون بالسرور ، وذاك يلقى فائدة فيتلقونها بالحبور ، حدائق افكارهم لا تأتى الا بيانع الثمر ، وبحار ابحاثهم لا تجود الا بأثمن الدُّرر ، يعلمون أن المقصود من الاجتماع التعارف ومبادلة الافكار ، لا تناول القهوة واستعمال السيكار (استحسان)

كلٌّ منا ذاق لذة ما نسميه ساعات « الصدف » وود لو تكون كل ايامه مثلها واحس بمجالس الكلف ومالها من الاضرار فطنطنة عود يسمعها المرء وهو مار فى الشارع ربما تفوق لذتها لذة ما كان يحضره من المجالس الموسيقية ويصرف دراهمه لسماعها والسبب فى ذلك ماقال المستر هربرت سبنسر وهو انه كلما ازداد التكلف المحيط بالاجتماعات نقص السرور الحاصل منها لانه لا يمكن القيام بواجباتها الاساسية كلها فكيف بالتكلفات الزائدة المضرة ؟

وما قيل عن المجالس يقال عن الولائم ويزيد فى القلق هنا امر المأكول . اعرف رجلاً كان يجب ان يدعو صديقاً له ولكن منعه من ذلك انه لا يقدر ان يقدم له اربعة وعشرين نوعاً من المأكول . والاعجب

انا صرنا بالتكلف المضر والتقليد الاعمى اذا اردنا ان ندعو صديقاً لنا دعونا معه كل من نريد ان نوفيه ما له علينا من يدٍ كدعوة ماضية او قضاء مصلحة ولو لم يكن بينهما مودة . وهذا نتيجة حالتنا الحاضرة لان الكلفة توجب علينا ان يكون المدعوون جمعاً كي يخف المصرف ولو لم يحصل المقصود . (استحسان)

ولو اردنا ان نعدد ما يجرى على المأدبة وكيف ان احد المدعوين اذا شبع لا يقدر ان يقوم حتى يشبع البقية لئلا يقوموا معه وهم جياع لطال بنا الكلام وأدى الى غير ما كنا نتوخاه من الاختصار . ولهذه المجالس والدعوات اضرار كثيرة لا ينبغي ان نتركها كلها :

منها الاسراف الذي يؤدي الى الخراب فالرجل المتوسط الحال اذا اراد ان يقوم بواجبات الاجتماعات فلم يأخذ بيتاً الا في احسن بقعة من البلد ولم يضع فيه الا اثمن الاثاث ولم يلبس الا آخر زيّ ولم . . . ولم . . . يصبح وبساطه الثرى فتحزّ الدموع في جلباب خده ولكن لا ينفعه البكاء

ومنها تخفيف المباشرة الصحيحة التي هي ضرورية للعمران لان من اراد ان يمدرجليه على قدر لحافه ينبغي له ان يقلل من الاجتماعات ما امكن والا يصبح معدماً كما قدمنا . ومنها ان هذه الحالة توجب للذين لا يتحملون تكاليفها ان يميلوا الى بعض العوائد المضرة كالجلوس في (القهاوي) وصرف الاوقات في لعب الورق والبليارد لان المرء اذا فقد شيئاً يسره لا بد له من شيء يقوم مقامه

وما قيل عن الاعراس والمجالس والولائم يقال عن الازياء الا ان الوقت لا يساعدنا ان نبحث فيها لان عندنا ما هو اهم منها وهو التقليد

فى العلم .

الباحث فى علم الاستقراء يرى ان من اعظم الاسباب التى تمنع من تصحيح الافكار التقليد فى العلم . قام ارسطو فى القرن الرابع قبل المسيح وأسس فلسفة بناها على ما بلغ اليه من العلم ثم مضت بعد ذلك مئات من السنين والناس تحذو اثره حذو القذة بالقذة والنعل بالنعل فلم يأتوا بجديد بل ربما تأخروا عنه حتى ظهرت الامة العربية للوجود وقام اساطينها ينتقدون هذه الحالة وفى مقدمتهم الحكيم الفارابى يبين لنا ان كون ارسطو شيخ الفلسفة لا يوجب علينا ان نسلم كلامه تسليما اعمى بل ينبغى ان نبحث فيه فما وافق منه العقل قبلناه ، وما خالفه نبذناه ، وما كادت تنتشر امثال هذه الافكار فى الامة حتى كشفت الحكمة الشرقية جلبابها ، وبرزت الآيات العربية من حجابها ، ثم اصابنا ما اصابنا مما يطول شرحه فانتقضت الاحوال واصبح سوق العلم عندنا كاسداً وما لنا اليوم الا ان نقول :

هل الدهر الا ليلة ونهارها والا طلوع الشمس ثم غيارها

وكان الغربيون رأوا فضل العلم عند الشرقيين فاخذوا يجدون السير فى طلبه لكنهم لما حصلوا على بعض العلوم واكثرها لارسطو لم يخرجوا عن نطاقها بل ربما كانوا يمسخون اكثرها وظهور (السكولمن) ومباحثهم العقيمة كقولهم : كم عدد الملائكة الذين يمكن ان يرقصوا على رأس ابرة واحدة ؟ تشهد لما قدمناه . وهكذا بقى الحال عندهم تقليداً أعمى لرجل لا يفهمون جل كلامه حتى قام (فرانسيز بيكون) فى اواخر القرن السادس عشر للميلاد وبين فى طريقته الجديدة كمن سبقه من حكماء العرب انه ينبغى لنا ان لا نأخذ

قولاً الا بعد البحث فيه . فكانت نتيجة اعماله ان اظهر الغربيون فى ثلاثة قرون من آثار العمران ما لم يسبقهم اليه أحد . نعم لا ننكر انه حصل بعد ذلك شيء من التقليد المضر كرفض الانكليز تطعيم الجدرى لما اخترعه جنَّر لاعتقادهم انه يخالف ارادة البارى تعالى الا اننا نرى حكومتهم بعيد ذلك كافأته بمقدار ثلاثين الف ليره

اما نحن الآن فكأننا خلقنا للتقليد فانه يظهر فى عوائدنا كما قدمنا ، فى زراعتنا ، فى صناعتنا ، فى تجارتنا ، فى كل شيء حتى فى امور الاعتقاد

أذكر قصة اخبرنى اياها احد محترمى الفرنجة مثلاً للتقليد فى المشرق وهى ان احد فلاحى هذه البلاد كان اذا اراد ان يحمل البطيخ يضعه فى أحد جانبى الشريجة[1] ويضع فى الجانب الآخر حجراً للموازنة فقيل له يوماً ان يقسم البطيخ الى قسمين ويضعها فى الجانبين بدلاً من حمل الحجر لانه يتعب الدابة بلا فائدة فشكر النصيحة للناصح ولكنه لم يقم بواجبها لان التقليد احتوى عليه فصده عن الطاعة والجهالة استحوذت عليه فصرفته عن الرشد ومر فى اليوم الثانى وقد اعاد ما تعود عليه فقيل له ما قيل اولاً فقال « هيك عاش ابى وجدى » (تصفيق)

لو بعث من فى القبور من اجدادنا لما رأوا فى زراعتنا جديداً ولو عرضت عليهم صناعتنا لرأونا اضعناها ، واسقطنا جاهها ، ولو قام اليوم احد ليبدى رأياً او يصلح فاسداً لقال له المتعصبون : القديم على قدمه ذاك زمان قد تصرم وقد كفانا عناء البحث الاولون . « واذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا او لو كان

(١) الشريجة جوالق كالخرج ينسج من سعف النخل يحمل فيه البطيخ

آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون » (استحسان)

والذى يزيد فى الوهن ان شبان بلادنا الذين يتخرجون فى مدارس الاجانب او يتعلمون لغاتهم يخرجون من تقليد ويدخلون فى تقليد يصبحون واوقاتهم تصرف فى «البالوات والتياترات» واموالهم تضاع فى المقامرة وعقولهم فى المسكرات لا مقصد لهم من اللغات الاجنبية الا ان يتباهوا بسلامها عن السلام العربى بقولهم مثلاً « بونجور » (استحسان)

فى صدورهم تلتهب نار البغضاء للآباء لانهم آباء وفى قلوبهم تغلى مراجل العداوة للقديم لانه قديم قد هزؤا بالجديد لا لانهم يبغضون التقليد بل لانهم مقلدون والاعجب انى أعرف رجلاً قرأ ترجمة دارون فما فهم منها الا انه ينكر البارى تعالى فتمسك بهذا الرأى وصمّت اذنه عن سماع ما يخالفه . يا سبحان الله كيف يجوز ان يسمى هؤلاء بشراً والبشرية منهم فى نفور ؟! « أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » (تصفيق)

تالله هذه حال تترقرق لها العبرات وتُقِضّ لها المضاجع[1] وما من احد ينظر اليها الا ويستوبل عاقبتها[2] . غيرنا يجتهد كل يوم بتحسين حاله ونحن بالترهات مستمسكون . وقد ضربت لنا الامثال «فما لنا عن التذكرة معرضون »

---

(١) اقض المضجع خشن والمراد لازمه وهو عدم استطابة النوم ويقال : اقض الله فراشه واصل اقض كان فيه القضض وهو الحصى واقضه جعله فيه (٢) استوبل المكان استوخمه ولم يوافق صحته ولم ار هم استعملوه فى المعانى